مجادلاتنا ومناقشاتنا

انطلق صاحبي فى صوت صاخب ، يقول : لا يمكن أن أصدق هذا ! من يقول به؟ لا أحد فى الدنيا إن هذا الرأى خطأ ، بل خطأ شنيع . ياشيخ اسكت . ما تقولش كده لا تجعلنى أتهم ذكاءك .

قلت : ياصاحبي وماذا عن الرأى ذاته ؟ لقد سمعت منك شيئا عن الدنيا ، ومن يصدقون فيها ، ومن لا يصدقون . وسمعت منك شيئا آخر عن الخطأ ، والخطأ الشنيع ، وعن ذكائى وحسن ظنك به . ولكن الرأى الذى ابديته أنا ، لم أسمع منك شيئا عنه . لماذا هو خطأ ؟ لماذا لايصدقه الناس ؟ لماذا تتهم ذكائى لأنى أقول به ؟

قال بصوت أشد حدة وأشد صخبا : هذا كلام لا يستحق المناقشة . الخطأ فيه ظاهر، ظاهر جدا ...

ووجدت أن لا فائدة من الاسترسال فى حوار كهذا ؛ وأيقنت انى إن افعل ؛ فمن المؤكد انى سأخسر هذا الصديق . قلت . حسنا ؛ هل لك أن تشرب فنجانا من القهوة ؟

وأدرت الحديث الى موضوع آخر : وهكذا أقفلت باب الشر واسترحت .

هذا نوع من المجادلات الكثيرة التى تدور بيننا . يحتد كل منا ؛ و يتعصب لرأيه ؛ لا يؤيده لك بالحجة ولكن بالصخب والضجيج والصوت العالى . قلما يعرف عدد كبير منا أن قيمة الكلام ليست فى التأكيد بأن كلام غيرك خطأ وأن رأيك أنت هو الصواب ؛ دون أن تقدم دليلا على تلك الدعوى .

وأكثرنا يقع فى خطأ آخر : تدور المناقشة حول موضوع فى القانون ؛ فيتدخل فيها جميع الحاضرين ، سواء أكانوا عارفين او غير عارفين بالقانون . والغريب أن يكون غير العارفين أكثر المتحدثين خلافا ، وأشدهم تحمسا ، وأعظمهم تعصبا لآرائهم .

وتدور المناقشة على مسألة هندسية فيشترك الحاضرون فيها جميعا مهندسين وغير مهندسين ، دارسين وغير دارسين . ويختلط العارف بغير العارف . بل يكاد المهندسون وذوو الاختصاص يصعب عليهم أن يبدوا آراءهم لأن غيرهم من ذوى الأصوات العالية والحناجر القوية قد شغلوا الوقت كله .

وما يقال عن مسائل القانون ومسائل الهندسة ، يقال عن مسائل الطب والزراعة والتجارة وعن سائر المسائل . قلما يعرف كثيرون منا حدودهم . ماذا يعرفون وماذا يجهلون . قلما يسلم أحد منهم أن غيره مختص بهذا الفرع من العلوم أو الفنون فهو يبحث ويجادل ويناقش ويتحمس ويبدى آراء . ويحكم بالخطأ على آراء غيره .

إن قيمة الكلام ليست فى أن تتكلم فحسب ، ولكن فى أن تتكلم لسان العارف الدراس الواثق من علمه وفنه ورأيه . قيمة الكلام هى أن تزن ما تقول . وأن تكون شجاعا عادلا فتعترف لغيرك بما قاله من صواب وتعترف بما وقعت فيه من خطأ . قيمة الكلام هى أن تتكلم حينما يكون الكلام مطلوبا ، وحينما تشعر فى نفسك بالمقدرة على أن تتكلم بشىء جديد برأى او فكرة أو توجيه . أما أن تتكلم والسلام فسفسطة لا ترفع من قدر المتحدث ولكنها تنزل به .

كثيرون منا يكرهون أن يقولوا إنهم لا يعرفون ، مع أن قوة الجدل الحقيقية فى المعرفة الصحيحة . ولا معنى لأن تجادل وانت لا تعرف من الموضوع شيئا . خير أن تسكت وتصمت وتتعلم . إن الذى يعرف متى يكون الصمت يعرف متى يكون الكلام ، والذى يتعود ضبط لسانه يكفل لنفسه الاحترام ، ويكفل الانصات لرأيه وقوله ، اذا عن له أن يتكلم .

وهذا العيب الذى نعانيه فى مجالسنا الخاصة ، نعانيه أيضا فى مناقشاتنا ومجادلاتنا العامة ، فى مسائل السياسة والاقتصاد والتعليم والاجتماع . فأعقد المواضيع الاقتصادية يتصدى لمعالجتها من لا يعرف من الاقتصاد ألفه . والامر كذلك فى سائر فروع العلوم والمعارف . أما السياسة فصيبتها معروفة ، فإن المصريين كلهم ساسة من الطراز الأول ، عارفون ببواطن السياسة وخوافيها .

تقابل إنسانا من الناس ، تعرف أنه لا يكاد يلاقى كاتبا من الدرجة الثامنة الا بشق النفس ، فيسألك رأيك فى السياسة ، فاذا رددت عليه السؤال وطلبت أنت منه أن يبدى هو رأيه ، هز اللعين رأسه وقال فى ابتسامة العارف الواثق المتواضع إن رجلا له مركز كبير قال له . . . كيت . . . وكيت . ثم يروح يروى لك هذا الكيت والكيت . . . ناسبا اياه إلى أعظم المصادر واوثقها . واذا لاح لك أن تستوضحه شيئا عن هذه المصادر ابتسم هذا الانسان الجاهل المغرور وربت على كتفك كأنه يقول لك : مسكين إنك لا تعرف شيئا . أما هو فقد واتاه الله العلم كله .

فصيبتنا أننا ندعى العلم بكل شىء . وكلمة " لا " تكاد لا توجد فى قواميسنا . كأنما نحسب فيها ما ينقص من مقامنا ، مع أن الذى يعرفها ، ويعرف كيف يقولها ، ومتى يقولها ، هو الذى يعرف قدر نفسه ، وهو الشخص المثقف حقا ، الذى يحظى بالحب والاحترام والتقدير .